فوز الاحداث

حدُّ الحداثة لا يقف عند حدّ . فالولد البالغ الثامنة من عمره ينظر الى الرجل البالغ الثلاثين ويحسبهُ شيخًا طاعنًا في السن ولكنهُ حينما يبلغ هو سن الثلاثين يعتذر بصغر سنهِ عما يبدو منهُ من الطيش ونزق الشباب . والفتاة البالغة السادسة عشرة من عمرها تلوم المرأة البالغة الاربعين اذا اهتمت بشيء من زينة الدنيا ولكنها متى بلغت هي هذا السن تعدل عن رأيها الاول فتحسب انها لا تزال في سن الشبيبة وريعان الصبا ويحق لها الجمال والدلال

وهذا القول يصدق اجمالاً على الهيئة الاجتماعية فان سن الحداثة يتقدم بتقدمها . وقد لقّب البعض هذا العصر بعصر الشبان على اننا لم نرَ فيهِ من الشبان النوابغ من اتى من الاعمال المجيدة ما هو خليق بان يُقابل باعمال داود والاسكندر وبونابرت وغيرهم

أُنتخب احد الاميركيين بالامس عضوًا في مجلس النواب ولهُ من العمر سبع وثلاثون سنة فقام كثيرون يعترضون على هذا الانتخاب لصغر سن المنتخب وفي ظنهم ان الحكومة تعرّض نفسها لاخطار شديدة باعتمادها على رجل صغير السن قليل الخبرة مثلهُ . وقد كان جيمس فكس الانكليزي منذ قرن ونصف وزيرًا للبحرية وكان الملك جورج الثالث يخاف بأسهُ وهو لم يناهز الحادية والعشرين . وكان وليم بت خصمهُ اللدود وزيرًا لمالية الدولة الانكليزية وهو في الثالثة والعشرين من عمره ثم صار رئيسًا لوزارة انكلترا في السنة التالية

ويذكرون الآن حداثة ملك اسبانيا ويلقبونهُ "بالملك الصغير" وقد كان الاسكندر يغوص بحار المعارك وهو في الثامنة عشرة من عمره ايام كان العالم في حداثتهِ ولم نسمع انهم كانوا يلقبونهُ "بالامير الصغير" . وكان البرنس ادورد الانكليزي الملقب بالامير الاسود في الثامنة عشرة من عمره لما انتصر على الفرنسويين سنة ١٣٤٦ في معركة كريسي الشهيرة فاكسب امتهُ شهرةً لا يمحوها كرور الزمان . ولم يكن قد ناهز السادسة والعشرين من عمره لما قاد الجيش الانكليزي في معركة بواتيرس العظيمة فدحر جيوش الفرنسويين ونال نصرًا مبينًا

واذا قابلنا بقية نوابغ هذا العصر الشبان بنوابغ العصور الماضية نرى فرقًا كبيرًا من حيث السن الذي اشتهروا فيهِ . فقد ظهر في الولايات المتحدة منذ سنتين نابغة في فن الموسيقى والضرب على الكمنجة ولهُ من العمر عشرون سنة فاعجب بهِ الناس وقالوا انهُ متى جاوز العشرين صار لهُ شان كبير في فن الموسيقى وقد كان موزار منذ مئة عام مديرًا لجوق الموسيقيين

وهو لم يناهز السادسة عشرة من العمر ولما كان عمرهُ ست سنوات ضرب على البيانو هو واختهُ امام ماريا تريزا امبراطورة النمسا

ومن اهل هذا العصر من يدعو الامبراطور غليوم الثاني امبراطور الالمان شابًّا مع ان اولي الامر يبحثون في مسألة زواج ابنهِ . ومنهم من يحسب المستر روزفلت رئيس الولايات المتحدة شابًّا ولذلك فهو غير كفوء للمنصب العظيم الذي رقي اليهِ ويحسب اللورد كورزن حاكم الهند شابًّا مع انهُ بلغ الاربعين من عمرهِ

واذا تصفحنا التواريخ القديمة نراها مفعمة باسماء النوابغ الشبان الذين عملوا اعمالاً مجيدة تفوق ما يأتيهِ نوابغ هذا الزمان . فالملك داود النبي جُعل ملكًا على اسرائيل وهو في الثامنة عشرة من عمرهِ . والاسكندر المكدوني اضاف كل العالم الشرقي الى المملكة اليونانية وهو لم يناهز الثالثة والثلاثين . والملك شارلمان دانت لهُ فرنسا وهو في الثلاثين من العمر . والقائد كورتز افتتح بلاد المكسيك في الثلاثين من عمرهِ . ونبوليون بونابرت اكتسح بلاد ايطاليا وطرد الجيوش النمساوية منها وهو لم يناهز التاسعة والعشرين . ثم اذا حولنا انظارنا عن ارباب السيف وقواد الجنود الى ارباب العقول السامية ممَّن نبغوا في الاختراعات والفنون نراهم لا ينقصون عنهم في الشان والعدد . فان جيمس وط رأى قدر جدتهِ تغلي على النار فيتحرك غطاؤها بقوة البخار وهو فتًى صغير السن فتوصَّل الى اختراع الآلة البخارية . ورفائيل المصور الشهير مات في السابعة والثلاثين بعد ان خلَّد اسمًا لا يموت على كرور الايام . وشلي الشاعر الانكليزي عدّ من نوابغ الشعراء وهو في الخامسة والعشرين . وجون رسكين الشاعر والمؤلف الانكليزي الشهير بلغ اقصى ذرى الشهرة وهو في الرابعة والعشرين من العمر

واشهر قصص الشبان العظام قصة الملك داود الفتى الراعي الذي غادر آكام يهوذا حيث كان يغني لقطعانهِ و يسامر النجوم ليجتي ذمار قومهِ ويدفع عنهم شرّ جليات الفلسطيني الجبار . فتى غض الاهاب جميل المنظر بارز اعظم جندي في ذلك الزمن واكبر الجبارين هامةً ابتدرهُ بحجر من مقلاعهِ اصاب جبهتهُ فرماهُ صريعًا ثم صار ملكًا على بني اسرائيل

واعظم فاتح في الزمان القديم الاسكندر المكدوني . كان قائدًا عظيمًا وهو شاب فهاجم اعظم ملوك عصرهِ واكبر جيوشهم كأنهُ القضاء المبرم فلم يقف في وجههِ عَدَد ولا عُدد . خاض غمرات الردى غير هيَّاب ولا وجل فاكتسح ثراسيا واليريا واضافهما الى الاملاك المكدونية وهو في الحادية والعشرين من عمرهِ . وافتتح مدينة طيبة ودمرها في الثانية والعشرين واستولى على مدينتي صور وغزة وافتتح مصر وبنى الاسكندرية وهو في الرابعة والعشرين . ولقي جيوش الفرس

فكسرها شرّ كسرة وذلل ملكها وهو في الخامسة والعشرين ثم اغار على بلاد الهند وافتتح جانباً كبيراً منها فقضى عمرهُ ولم يذق الاَّ حلاوة الظفر ولذة الانتصار

ورسائل الاسكندر الى الملك داريوس محفوظة بين كنوز الرسائل والمؤلفات الشهيرة. فانهُ لما هزم جيش الفرس البالغ ستمئة الف عدًّا في معركة اسوس سنة ٣٣٣ واسر زوجة داريوس وامهُ وابنهُ وكتب لهُ داريوس يعرض عليهِ الصلح ويطلب منهُ استرجاع عائلتهِ اجابهُ وقد سكر بخمرة الانتصار فقال: "خاطبني كملك اسيا ولا تخاطبني كما يخاطب النظير نظيرهُ واطلب مني ما تشاء كما يطلب المرؤوس من رئيسهِ والاَّ فلا تجد مني الاَّ الشرّ. وان كنت تنكر عليَّ حق التملك على بلادك فتربَّص في مكانك واستعدَّ لحربي ولا تفرّ من وجهي والاَّ فسأتبعك حيثما تفرّ"

ولما كان الاسكندر يحاصر مدينة صور بعث اليهِ داريوس يعرض عليهِ ان يتخلى لهُ عن كل البلاد غربي الفرات ويدفع اليهِ عشرة آلاف وزنة ويزوجهُ بابنتهِ ويكون حليفاً لهُ ولا يطلب منهُ بدل ذلك كلهِ الاَّ ان يردَّ اليهِ امهُ وزوجتهُ واولادهُ. وقرأ الاسكندر هذا الكتاب في مجلس من قوادهِ فقال لهُ بارمنيون كبير القواد لو كنتُ انا الاسكندر لصالحت داريوس على ما طلبهُ فقال لهُ الاسكندر وانا لو كنت بارمنيون لفعلت ذلك ولكن لكوني الاسكندر فجوابي الان هو جوابي الاول. ثم كتب الى داريوس يقول "لقد عرضت عليَّ قسماً من املاكك وانا سيدها كلها ولو شئت ان اتزوج بابنتك لفعلت ذلك من غير ان استشيرك". وبعد كتابة هذه الاسطر عاد الى تعبئة الجيوش واعداد العدات لكي يتم اخضاع الفرس فتم لهُ ذلك في المعركة المعروفة بمعركة اربل. هناك قوّض دعائم مملكة الفرس العظيمة وهو لم يناهز الخامسة والعشرين واستولى على كنوز الدولة الفارسية وخزائنها وما فيها من مئات الملايين

اما نعمة حياة الاسكندر فلا تقابل باعمالهِ المجيدة وفتوحاتهِ السابقة. اسكرتهُ خمرة الظفر فشمخ وتكبر وطغى وتجبر فطلب ان يُعبد كالله ولم يعد يقبل مشورة احد. وامر بتعذيب صديقهِ فيلوتاس وهو يشاهدهُ ويقهقه ضحكاً وبقتل بارمنيون وزيرهِ وقائد جيشهِ وبتعذيب كالستنيس ابن اخ الفيلسوف ارسطوطاليس استاذهِ لانهُ ابى ان يتقدم لهُ الاكرام اللائق بالآلهة. وطعن وهو سكران صديقهُ كليتوس الذي نجى حياتهُ من المدرك في معركة غرانيكوس

وقد قام في اوائل القرن الماضي رجل ناق الاسكندر المكدوني في قيادة الجيوش واساليب الحروب وهو نابوليون بونابارت. الاسكندر ورث الدولة وتاج الملك من ابيهِ وغاية ما

فعلهُ انهُ وسع ملكهُ الموروث توسيعاً عظيماً . واما نابوليون فوُلد من السوقة ثم مهد الصعاب بعزمهِ وحزمهِ وتغلب على المصاعب واستخدمها لبلوغ مآربهِ . وُلد في جزيرة كورسكا من عائلة لا ثروة لها ولا جاه ودرس في احدى المدارس الحربية ثم ارتقى رويداً رويداً الى ان صار امبراطوراً على فرنسا وسيداً على اوروبا وهو في الخامسة والثلاثين من عمرهِ . وخطر لهُ وهو في الثامنة والعشرين من عمرهِ ان يناوئ انكلترا ويستخلص منها املاكها الشرقية فاستولى على مصر استعداداً لهذا العمل العظيم . ولكن الاسطول الانكليزي تتبَّع اسطولهُ وحطمهُ في ابي قير وارتد عسكرهُ عن اسوار عكاء مقهوراً فخابت مساعيهِ في الشرق وعاد الى فرنسا وكانت الاحوال على غير ما يشتهي فتغلب عليها ومهد الصعاب فدانت لهُ وقلب الحكومة الدستورية مدعياً انها هي السبب في عجز الفرنسويين عن حفظ الاملاك التي اكسبهم اياها بانتصاراتهِ وفتوحاتهِ وجعل نفسهُ قنصلاً

والذي فعل كل هذه الافعال العظيمة لم يكن سوى شاب قصير القامة قليل الكلام فخور يحب الرفعة الى درجة لم يبارهِ فيها احد ثم اقام نفسهُ امبراطوراً على فرنسا ووطئ بجيوشها اوربا وهو من اصل ايطالي

ومن غرائب الامور ان فرط الذكاء والنجابة اذا بكَّرا في الظهور كلفا الانسان ما لا يطيقهُ وادّيا بهِ الى عاقبة وخيمة على حد قول الشاعر

واذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الاجسام

فاذا رجعنا الى التاريخ وجدنا فيهِ اصدق الشواهد على ما قلنا . فان الاسكندر الفاتح الكبير عاش حتى وجد الموت احلى من الحياة . وداود اضطر ان يحارب ابنهُ ويراهُ قتيلاً امام عينيهِ . ونابوليون قضى زمن الكهولة سجيناً في جزيرة . وتشترتون النابغة الانكليزي ادهش اوربا بالاشعار البليغة التي كان ينظمها وينسبها الى قس عاش في القرن الخامس عشر فانطلى هذا الخداع على العلماء والمؤرخين واهتموا لهُ اهتماماً شديداً حتى تبين لهم اخيراً ان تشترتون هو الناظم . وضاقت بتشترتون سبل المعاش وسدَّت في وجهِ ابواب الرزق فامتهن حرفة الادب وشتم صناعة الشعر وشرب السم فمات ولهُ من العمر سبع عشرة سنة وتسعة اشهر . انتهى ملخصاً من مقالة لروبرت وليمس في مجلة منسي الاميركية